

# السيرة الذاتية والإبداع النسائي

□ لا تزال السيرة الذاتية من أكثر الأجناس الأدبية مرونة، وأصبح من المعتاد المكرر قولنا بأنها جنس غير مستقر، وغير متعين بشكل نهائي لدرجة أن السيرة الذاتية توصف أحياناً بأنها "جنس مراوغ" ويأن مصطلحها نفسه يكتنفه غموض ولبس وذلك متأت من جهتين:

## القاهرة « الثورة » : صبري الصاوي

● أولاً: قربها من أجناس وأنواع محابذة كالبيوميات والمذكرات والرسائل وقصائد السيرة والشهادات والحوارات الشخصية واقتراضها بعض الأيات عمل تلك الأنواع أو نظمها الداخلية وأشكالها التي تأثرت هي أيضاً بالسيرة الذاتية.

● ثانياً: القيود التي تتحكم في كتابتها وتجعلهم يسربون مضامينها وأشكالها إلى تلك الأنواع تحاشياً لرجوع السيرة الذاتية إلى شخص كاتبها الواقعي، وما ينتج عن ذلك من أحكام وتقييم سالب للكاتب، فيقر إلى ما يعرف مثلاً برواية السيرة الذاتية، أو بتخفيف بعض اشتراطات كتابتها كالسرد بضمير الغائب أو اللجوء إلى التعديل والحذف، إلا أن التعريفات المتداولة في النهاية لا تخرج عن تحديدها بأنها قصة حياة الشخص الذي يسردها بنفسه.

● ثالثاً: وهنا يقف السؤال.. هل بهذه التعريفات ومع هذه الإشكاليات يمكن أن يكون للمرأة حضور داخل الجنس السبري أو يمكن أن تكتب المرأة "سيرتها الذاتية" مع خصوصية تجربتها ذاتها المتشكلة تحت وطأة ظروف لا تماثل ظروف تجارب الرجل كاتب السيرة؟ فهو يكتب في مجتمع ذكوري ساهم باعتباره رجلاً في صياغة لغته وخطابه وأعرافه فيما تكتب المرأة في المجتمع الذكوري ذاته كصوت هامش مضغوط أو مغموع، مما يلون سيرتها الذاتية بالمزيد من المحذورات، والمحظورات والإكراهات التي تعاني منها السيرة الذاتية عامة.

لكن هناك محاولات جادة من السير الذاتية النسوية مثل التي كتبها فدوى طوقان (رحلة جبلية.. رحلة صعبة) وغادة السمان (القبيلة تستجوب القبيلة)، ونازك الملائكة (لمحات من سيرة حياتي وثقافتي) وفاطمة موسى "صفحات من الذكريات" ونوال السعداوي - مع تحفظنا - كتبت "مذكرات طبية".

## تفوق الرجال

ورغم ذلك فإن كل هذه المحاولات لم تغد أحد كتاباً ومبدعياً المعروفين وهو الناقد الدكتور جابر عصفور الذي اهتم اهتماماً خاصاً بأدب السيرة الذاتية - إذا أجزبت التسمية- ورغم ذلك لم يكتب أو يشير من قريب أو بعيد إلى السيرة الذاتية النسائية.. وعندما سأته إحدى الباحثات السعوديات عن ذلك ذات مرة، أجاب قائلاً: أعتقد أن أبسط دافع يمكن أن يرد على خاطري، وهو

أبسط دافع وأهونه في الوقت نفسه - هو أن السير الذاتية المتميزة إبداعياً هي سيرة ذاتية كتبها رجال، وأن هذه السيرة حققت من التأثير والمكانة والشهرة ما جعلها تهيمن على الذاكرة النقدية لي ولغيري، ولذلك لم أكتب سوى عن السيرة الذاتية التي كتبها أمثال طه حسين، وأحمد أمين، ومحمد

حسني هيكل، وزكي نجيب محمود، وإحسان عباس، وإدوارد سعيد وعشرات غيرهم، فهذه السيرة الذاتية هي أعمال أدبية تفتتح على أفاق عديدة وتتميز بالتفوق الأدبي الذي يتميز به كتابها في أعمالهم الأخرى التي جعلت منهم أعلاماً بارزة في سماء الأدب،

ويبدو أن الأمر في هذا الجانب الخاص بالتفوق لا يقتصر على فن السيرة الذاتية؛ وإنما يجاوزه إلى غيره من الفنون في الأدب وغيره، فاشهر الأدباء رجال، وأعظم الموسيقيين رجال، وأبرز الرسامين رجال، وأهم النحاتين رجال ويبدو أن الأمر يسري في كل مجال. ويستطرد د. جابر عصفور مؤكداً أن المجتمعات الإنسانية ظلت تحجر على المرأة طويلاً، وتنتظر إليها نظرة دونية لم تقدم في كثير من المجتمعات، ولذلك كانت مجالات الإبداع محدودة ومحصورة أمام المرأة القيدة بأكثر من قيود ولا تستطيع أن تعالج كل الموضوعات بالحرية نفسها التي يسمح بها المجتمع للرجل دون المرأة.

## خوف الكاتبة

أما الروائية نعمات البحيري: فترى أن القارئ بصفة عامة يقبل على السير الذاتية فهي تمثل رؤية هي محصلة تجربة تتعامل مع الواقع الإنساني، فما ينطبق عليك ينطبق على الآخرين، والسير في كل مكان فيها خليط من المتعة مع الفن والحقيقة، ومع ذلك لا تخضع كل السير الذاتية للحقائق المؤكدة، بل الكشـير منا - نحن الكاتبات- يخفي الكثير من الأحداث، فلا نستطيع أن نسرد كل ما حدث، ودائماً ما تخضع الصورة لكثير من "الرتوش"، لأن هناك أشياء نخجل منها وأخرى لا نفضل أن يطلع عليها الآخرون، ولكن كلما كانت السيرة الواقعية كلما حققت نجاحاً أكبر، مع ضرورة أن نعرف مدى القيود التي تصبح مضاعفة كلما تحركنا من

الغرب إلى الشرق، فالمرأة الشرقية تجد هناك الملايين ممن يحجبون أن "يتلصصوا" على ما حدث لها ونحن مكبلون بالفعل في مجتمعنا العربي حتى في كتابة قصيدة شعر، فهناك الكثير من التحسينات حيث الرقيب الداخلي والديني والاجتماعي يحاول أن يظهر في الوقت المناسب، ويقطع علينا الكثير من الواقعية والصدقية، ولهذا فالكاتبة العربية تكتب وهي خائفة.. حتى من نفسها.

## السيرة الفضيحة

وتضيف البحيري: من هنا لابد للسيرة الذاتية أن تغلف بشيء من الغطاء بحيث تظل أشياء معينة، متوارية خلف الستار، لا تظهر الحقائق كما هي مثل السير الذاتية لنساء الغرب، والتي أعتقد أن السيرة الذاتية العربية لا يوجد فيها من الصراحة بحيث أنها تشكل لو كتبناها نحن كاتبات العرب "فضيحة" بكل المقاييس، لذلك نحن لا نملك الجرأة، حتى إذا امتلكتها لا يستلمحها الرجل ولا يحبها المجتمع، فهناك رد فعل دائماً ما يكون ضد هذه السيرة الذاتية النسائية في وطننا العربي، فنظرتنا لها لم تتغير مهما ادعت الأدبيات من صدق وواقعية!

● وتؤكد البحيري: هناك طبعاً بعض الانفتاح الذي لم يكن يطبق على الكاتبات في السابق، حيث أن الكاتبة التقطت أنفاسها، واتسعت مساحة الصدق في الوقت الحاضر لتتحرك فيها بحرية، وأصبحت هناك أشياء يتقبلها المجتمع عندما تتحدث الكاتبة

عن أسرارها، التي كان المجتمع يلغظها قبل ذلك، وكلما مر الوقت كلما زادت مساحة الحرية، ففي الماضي كان الرجل تفرض عليه القيود نفسها من حيث عدم إمكانه الحديث عن تجاربه الذاتية مع الآخرين، مثل الشاعر نزار قباني الذي عشقه الناس لأنه كان يشكّل الصدق للمثقف العربي من خلال ما كان يكتب من منوعات، لكن حالياً اتسع هامش المصادقة، وإن ظل هناك من المثقفين وغيرهم من تنقصهم النظرة الفنية، ولا يعرفون ماهية خصائص كتابة السيرة الذاتية التي تحمل مقومات الضعف الإنساني والهجوم عليها يمثل هجوماً على فنية العمل الزماني والمكاني، والتي إذا افتقدت الصدق فقدت عمودها الفقري، ولذلك تجد القارئ متجاوزاً مع كاتب السيرة الذاتية، وممتناً له لأنه أطلع - بشيء من الصراحة- على حقائق حدثت له، وربما نحد أنفسنا في تلك التجربة الجريئة التي تجاوزت الخطوط الحمراء، وعموماً الكاتبة العربية إنسان.. لا هي شيطان ولا ملاك!

● وإني أؤكد أن ما تلاقيه السير الذاتية النسائية من هجوم هو نجاح لها بكل المقاييس بما تقدمه من صدق ووقائع إنسانية، ومن ضعف ومشكلات وأزمات وكبوات أحياناً ما نسقط فيها ثم نعود لاستعيد التوازن مرة أخرى.

## امرأة مخلة

وعن تحقيق الكاتبة العربية لذاتها بالكتابة عنها تقول البحيري:

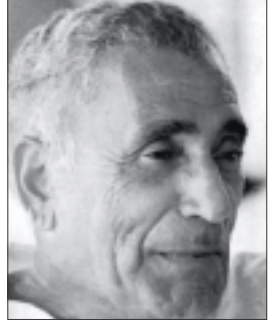
- في الأساطير الثقافية نعلم، ولكن في الأساطير الأخرى لا تحصل الكاتبة على



● غادة السمان..



● نازك الملائكة..



● محمد حسنين هيكل..



● طه حسين..

امرأة- عندما يتناول سيرته وتجربته الأدبية ينبغي بذلك أن يعود على قارنه بالنفع، وأن يتطلع القارئ إلى معرفة حياة الكاتب بما يتخللها من أسرار قد يفصح عنها في لحظة صفا، مع النفس، ولست ممن يحاولون طمس أي سيرة كاتب مهما كان نوعه، فالمرأة نصف المجتمع وهي القديرة.. والتاريخ يكفل لها الحق في أن تتحدث عن ذاتها شريطة مراعاة فضائلنا وتقاليدينا، ولكن ليس معنى ذلك أن تكتب أي كاتبة سيرتها الذاتية وتفرضها على المجتمع، ثم تطالبه بتقبل هذه السيرة التي لا تمثل إطلاقاً حياة أدبية كبيرة لها صولات وجولات في مجال الكلمة أو التجربة، بل هي مجرد ترهات عاطفية وجسدية وهذا ما نرفضه طبعاً.

## سيرة تافهة!

وتضيف د. نعمات: وعموماً فإنه لا يصح إلا الصحيح، ولن تعيش سيرة ذاتية لكاتبة "تافهة" حاولت من خلالها إثارة غرائز أو تحطيم قيم مجتمعنا العريق، إنما تموت منذ صدورها لأن الأدب الحقيقي ليس مجرد مغامرات عاطفية لنسوة لا يستحجن، فمثل هذه الأعمال تروج مؤقتاً، لأن الهجوم عليها قد يكون سلاحاً ذا حدين، ربما يطغى نفعه إذا تم استغلاله أفضل استغلال، وبالتالي ستتحوّل هذه السير الذاتية النسائية إلى مثل أعلى تقتدي به الفتيات وأغبات الشهرة والمجد، ولكن العبرة بما يمكن في الأرض وينفع الناس، إن البقاء دائماً للأصلح.